

تكوين الفكر العربي قبل الإسلام (3)

الدكتور رشاد محمد خليل

الطبيعة (وهكذا . . . وليس معنى هذا اننا نريد ان ننشئ علما عربيا في هذه الابواب ذلك ان المادة العلمية التي سنعثر عليها مهما بلغت لا يساوي شيئا بجانب هذا الانقلاب الهائل الذي حققه العلم الحديث ولكن اهمية هذا التصنيف هو اعادة دراسة الفكر العربي دراسة علمية موضوعية على اساس من مناهج مقرررة لتحديد مكانته التاريخية ولكشف اسلوبه في النظر والتفكير وفهم الوجود المحيط بها ، وعرض هذا الفكر بصورته الجديدة والمدروسة على الاجيال العربية التي تجهل هذا الفكر جهلا تاما بل والتي لا تعرف ولا تتصور انه قد كان للعرب قبل الاسلام فكر وعلم على الاطلاق ثم لعرض هذه الصورة على العالم ليصبح موقفه من الفكر العربي وليصبح تاريخه للحضارة والعلوم الانسانية لان جميع الذين ارحوا للفكر الانساني وعلومه لم يضعوا في اعتبارهم قط احتمال ان يكون للعرب قبل الاسلام علم وفكر على الاطلاق والذي يلتقى نظرة على اى موسوعة تؤرخ لتاريخ الفكر وعلومه لن يخرج بغير هذه النتيجة ، ان الفكر العلمى بالمعنى الصحيح تراث يونانى نقله المسلمون الى اوريا .

يلحق بفصل التجريد والمجاز موضوع هو ثمرة من ثمرات التجريد والمجاز وهو موضوع كان يسمى قديما فقه اللغة وهو شئ آخر غير فقه اللغة في الدراسات اللغوية الحديثة وقد جمع بعض علماء اللغة قديما تحت عنوان (فقه اللغة) مادة لغوية رتبوها ترتيبا خاصا اطلق عليه ابو منصور الثعالبي اسم فقه اللغة وهذا الموضوع على جانب كبير من الاهمية وان كان اللغويون انفسهم لم يجمعوا هذه المادة على اساس علمى وانما جمعوها ورتبوها على اساس لغوى صرف مما جعلها في الغالب ناقصة ومبتورة ومشوهة ولكنه رغم القصور الذى في هذه المادة فهى تلفت نظرنا الى القيمة العلمية للمادة اللغوية الموجودة في بطون المعاجم والى ضرورة محاولة الاستفادة منها باعادة ترتيبها ترتيبا يهتم باستخلاص المادة العلمية منها وذلك بجمع كل المادة التى تتعلق بموضوع واحد في باب خاص بها ثم الابواب التى تنتمى لعلم واحد تحت باب عام خاص بها اى ان جميع المادة الخاصة بعلوم الحيوان مثلا تحت (علم الحيوان) وجميع المادة الخاصة بالنباتات تحت (علم النبات) وجميع المادة الخاصة بالطبيعة تحت (علم

كتب فقه اللغة :

الباب الثاني : في التنزيل والتمثيل وفيه خمسة فصول .

الباب الثالث : في الاشياء وتختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها وفيه ثلاثة فصول .

الباب الرابع : في أوائل الاشياء وأواخرها وفيه ثلاثا فصول .

الباب الخامس : في صفات الاشياء وكبارها وعظامها وضخامها وفيه عشرة فصول .

الباب السادس : في الطول والقصر وفيه أربعة فصول .

الباب السابع : في اليبس واللين والرطوبة وفيه أربعة فصول .

الباب الثامن : في الشدة والشديد من الاشياء وفيه أربعة فصول .

الباب التاسع : في الكثرة والقلة وفيه ثمانية فصول .

الباب العاشر : في سائر الأوصاف والاحوال المتضادة وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الباب الحادي عشر : في الماء والامتلاء والصفرة والخلاء وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني عشر : في الشيء بين الشئين وفيه ستة فصول .

الباب الثالث عشر : في ضروب الالوان والانار وفيه تسعة وعشرون فصلا .

الباب الرابع عشر : في أسنان الناس والدواب وتنقل الحالات بها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس عشر : في الاصول والاعضاء والرؤوس والاطراف وأوصافها وما يتولد منها ويتصل بها ويفكر منها وفيه ستة وستون فصلا .

الباب السادس عشر : في الامراض والادواء وما يتلوهما وما يتعلق بها وفيه أربعة وعشرون فصلا .

من هذه الكتب التي تخصصت في موضوعات بعينها

كتب الأبل لابي حاتم السجستاني (— — 248)

وللاصمعي (122 — 216) ، ولابي عبيدة (110 —

206) ، وللنضر بن شميل (122 — 203) ، ولابي

زياد الكلابي ، ولأحمد بن حاتم الباهلي (— — 231) .

كتب الخيل لابن قتيبة (213 — 276) وابن

الاعرابي (150 — 231) ، وأبي عبيدة ، وأبي جعفر

محمد بن حبيب البغدادي (— — 245) ، وأبي محم

محمد بن هشام الشيباني (— — 245) ، ولأحمد

ابن حاتم .

وكتب الغنم والشاة لابي الحسن الاخفش (—

— 215) ، وللنضر بن شميل وللاصمعي .

وكتب الوحوش للاصمعي ، ولابي زيد (119 —

215) ولابي حاتم السجستاني .

وكتب الطير لابي حاتم السجستاني ، والنضر بن

شميل ، وأحمد بن حاتم الباهلي .

وكتب البازي والحمام والحيات والعقارب لابي

عبيدة .

وكتاب الفرس للاصمعي .

وكتاب النحل والحشرات لابي حاتم السجستاني :

وكتاب النحل والعسل للاصمعي (1)

والذي يستلقت النظر ان هذا النوع من التصنيف

رغم قصوره يضع تحت أيدينا مادة خصبة لدراسة

اسلوب العرب في تتبع مختلف الظواهر التي عرفوها

وفي ملاحظتها وترتيبها وتصنيفها .

وقد جمع أبو منصور هذه الظواهر في ثلاثين

بابا كل باب مقسم الى عدة فصول تتراوح بين ثلاث

فصول وستة وستين فصلا في الباب الواحد .

وقد رتب أبو منصور ابوابه على الوجه الآتي :

الباب الاول : في الكليات وفيه أربعة عشر فصلا .

(1) مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ج 1 ص 14 — 16 نقلا عن وفيات الاعيان لابن خلكان وبغية الوعاة للسيوطي ونزهة الالباء وفهرس بن النديم وكشف الظنون ومعجم الادياء .

وقد فعل الإسكافي شيئا قريبا من هذا في كتاب مبادئ اللغة وان كان لم يقسم أبوابه الى فصول كما فعل الثعالبي وكذلك فعل ابن سيده في كتابه المخصص وقد قام باعادة ترتيبه وتنسيق مادته بعد الاستعانة بالقاموس المحيط وفقه اللغة والمصباح واللسان والاساس وغيرها من كتب اللغة - عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى في كتاب الإنصاح .

ونخرج من هذه التصانيف بأن العرب قد لاحظوا كفاية الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم - حسية كانت أو معنوية - وحصروها ورمصوها في مختلف أحوالها ومن مختلف جوانبها .

أما من ناحية العموم والشمول كالكليات من سماء وأرض وحيوان ونبات . . الخ أو من ناحية اختلاف الأحوال واختلاف الاسماء والصفات باختلافها كأن يقال : كاس إذا كان يشرب فيها والافى زجاجة .

وكان يقال : الصبح في أول النهار والغسق في أول الليل وذلك في اليوم الواحد .

أو من ناحية الحجم كالكبر والعظم أو الضخامة والصغر . . الخ .

أو من ناحية الهيئة : كالطول والقصر . . الخ .

أو من ناحية الشدة : كالبيس والليونة والشدة والرخاوة .

أو من ناحية الكثرة والقلة .

أو من ناحية التضاد كالبياض والسواد .

أو من ناحية السعة كالخلاء والامتلاء .

أو من ناحية اللون أو النمو أو الصوت . . الخ .

ولم يلفت شيء من ملاحظتهم ما وقع تحتها كما ان ملاحظتهم للظواهر لم تكن سطحية أو عابرة تكفي بتوصف الشيء في عمومه وجملته .

ونضرب لذلك مثلا باحدى الظواهر الحسية وهي : تفصيل كمية المياه وكيفيتها .

الباب السابع عشر : في ضروب الحيوانات وأوصافها وفيه تسعة وثلاثون فصلا .

الباب الثامن عشر : في الأحوال والأفعال الحيوانية وفيه سبعة وعشرون فصلا .

الباب التاسع عشر : في الحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب والرمى وفيه أربعون فصلا .

الباب العشرون : في الأصوات وحكاياتها وفيه ثلاثة وعشرون فصلا .

الباب الحادي والعشرين : في الجماعات وفيه أربعة عشر فصلا .

الباب الثاني والعشرين : في القطع أو الإلتقاط والقطع وما يقاربها من الشق والكسر وما يتصل بهما وفيه سبعة وعشرون فصلا .

الباب الثالث والعشرين : في اللباس وما يتصل به والسلاح وما ينضاف اليه وسائر الآلات والأدوات وما يأخذ مأخذها وفيه تسعة وأربعون فصلا .

الباب الرابع والعشرين : في الأطعمة والأشربة وما يناسبها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب الخامس والعشرين : في الآثار العلوية وما يتلو الأمطار من ذكر المياه وأماكنها وفيه ثمانية عشر فصلا .

الباب السادس والعشرون : في الأرضين والرمال والجبال والأماكن والمواضع وما يتصل بها وفيه سبعة عشر فصلا .

الباب السابع والعشرون : في الحجارة وفيه ثلاثة فصول .

الباب الثامن والعشرون : في النبات والزرع والفنل وفيه سبعة فصول .

الباب التاسع والعشرون : في ما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية وفيه خمسة فصول .

الباب الثلاثون : في فنون مختلفة الترتيب من الأسماء والأفعال والأوصاف وفيه تسعة وعشرون فصلا .

اذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح في عين
 او بشر فهو عِدَّ .
 فاذا كان اذا حرك منه جانب لم يضطرب جانبه
 الاخر فهو كُرَّ .
 فاذا كان كثيرا عذبا فهو عَدَق وقد نطق به القرآن .
 فاذا كان مغرقا فهو غَمَّر .
 فاذا كان تحت الارض فهو غَوَّر .
 فاذا كان جاريا فهو غَيْل .
 فاذا كان على ظهر الارض يسقى بغير آلة من دالية
 او دولا ب او ناعورة او منجّتون فهو سِيح .
 فاذا كان ظاهرا جاريا على وجه الارض فهو معين
 وسَيَم وفي الحديث (خير الماء السَيَم) .
 فاذا كان جاريا بين الشجر فهو غل .
 فاذا كان مستنقعا في حفرة او نقرة فهو ثَقَب .
 فاذا نبط من تعر البئر فهو نَبَط .
 فاذا غادر السيل منه قطعة فهو غَدِير .
 فاذا كان الى الكعبين او الى انصاف السُوق فهو
 ضَحْضاح .
 فاذا كان قريب الغمر فهو ضَحَل .
 فاذا كان قليلا فهو ضهل .
 فاذا كان اقل من ذلك فهو وَثَل .
 فاذا كان خالصا لا يخالطه شيء فهو قراح .
 فاذا وقعت فيه الامثة حتى كان يتدفق فهو سَدِيم .
 فاذا خاضته الدواب فككرته فهو طَرَق .
 فاذا كان متفيرا فهو سَجِس .
 فاذا كان نثنا غير انه شروب فهو آجِن .
 فاذا كان لا يشربه احد من نثنه فهو آسِن .
 فاذا كان باردا منتنا فهو غَسَّاق (بتشديد السين
 وتخفيفها) ، وقد نطق به القرآن .
 فاذا كان حارا فهو سُخِن .
 فاذا كان شديد الحرارة فهو حَمِيم .
 فاذا كان مُسَخَّنًا فهو مُوعَز .
 فاذا كان بين الحار والبارد فهو فَايِر .

فاذا كان باردا فهو قار .
 ثم خَصِر .
 ثم شَيَم .
 ثم شُنَّان .
 فاذا كان جامدا فهو قارس .
 فاذا كان سائلا فهو شرب .
 فاذا كان طريا فهو غريض .
 فاذا كان ملحا فهو زُعَاق .
 فاذا اشتدت ملوحته فهو جُرَاق .
 فاذا كان مُرا فهو قُعَاع .
 فاذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة فهو أُجَاج .
 فاذا كان فيه شيء من العذوبة وقد يشربه الناس
 على ما فيه فهو شَرِيب .
 فاذا كان دونه في العذوبة وليس يشربه الناس
 الا عند الضرورة وقد تشربه البهائم فهو شَرُوب .
 فاذا كان عذبا فهو فرات .
 فاذا زادت عذوبته فهو نُفَاح .
 فاذا كان زاكيا في الماشية فهو تَمِير .
 فاذا كان سهلا سائفا متسلسلا في الحلق من طيبه
 فهو سلسل وسلسال .
 فاذا كان يمس الغلة فيشفيها فهو مَسُوس .
 فاذا جمع الصفاء والعذوبة والبرد فهو زلال .
 فاذا اكثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاهم فهو
 مَشْفُوه ثم مَشْفُود به ثم مَضْفُوف . ثم مَكُوك ثم مَجْمُوم
 ثم مَنَقُوص وهذا عن ابي عمر الشيباني (2) .
امثلة لبعض الظواهر المعنوية :
 رجل مُعْجِب .
 نسَم تَائِه .
 ثم مَزْهُو من وَمَنْخُو من الزهو والنخوة .
 ثم يادخ من البَدَخ .
 ثم اصيد اذا كان لا يلتفت يمنة ويسرة من كبره .
 ثم مُتَغَطَّر اذا تشبه بالغطارفة كثيرا .
 ثم مُتَغَطَّرِس اذا زاد على ذلك (3)

(2) فقه اللغة للثعالبي ص 289 : 129

(3) نفس المصدر السابق ص 154

المبوس :

- اذا روعى ما بين عينيه فهو قاطب وعابس
- فاذا كثر عن اتيابه مع المبوس فهو كالح
- فاذا زاد عبوسه فهو ياسر ومكهر
- فاذا كان عبوسه من الهم فهو ساهم
- فاذا كان عبوسه من الفيظ وكان مع ذلك منتفخا فهو مبرطم عن الليث عن الاصمعي (4)

كيفية النظر وهيئته في اختلاف احواله :

- اذا نظر الانسان الى الشيء بجامع عينه قيل رَمَعَهُ
- فان نظر اليه من جانب اذنه قيل كَحَظَهُ
- فان نظر اليه بعجلة قيل لَمَحَهُ
- فان رماه ببصره مع حدة نظر قيل حدجه بطرفه
- وفي حديث ابن سعود رضى الله عنه حدث القوم ما حدجوك بابصارهم

فان نظر اليه بشدة وحدة قيل ارشقه وأسف النظر اليه وفي حديث الشعب انه كره ان يُسِفَ الرجل نظره الى امه واخته وابنته .

- فان نظر اليه نظر المعجب منه او الكاره له او البغض اياه قيل : سَفَنَهُ وَسَفَنَ اليه سَفُونًا وَسَفَنًا
- فان اعاره لحظ العداوة قيل نظر اليه سَزَرًا

فان نظر اليه بعين المحبة قيل نظر اليه نظرة ذى علق .

فان نظر اليه واضعا يده على حاجبيه مستظلا بها من الشمس ليستبين المنظور اليه قيل استكسه واستوضحه واستشرفه .

فان نشر الثوب ورفع لينظر الى صفاقته وسخافته او يرى عوارا ان كان به قيل استشقه .

فان نظر الى الشيء كاللمحة ثم خفى عنه قيل لاحه لوحه كما قال الشاعر : وهل تنفنى لوحه لو الوحها فان نظر الى جميع ما في المكان حتى يعرفه قيل نفسه نقضا .

فان نظر في كتاب او حساب ليهذبه او ليستكشف صحته وسقمه قيل تصفحه :

- فان فتح جميع عينيه لشدة النظر قيل حدق
- فان لالهما قيل ترق عينيه
- فان انقلب حبلان عينيه قيل حلق
- فان غاب سواد عينيه من الفزع قيل ترق بصره
- فان فتح عين مغزوع او مهدد قيل جمج
- فان بالغ في فتحها وأحد النظر عند الخوف قيل حدج ونزع

فان كسر عينه في النظر قيل دنقس وطرفس من ابن عمرو فان فتح عينيه وجعل لا يطرف قيل شخص وفي القرآن شاخصة ابصارهم .

فان ادام النظر مع شكون قيل اسجد عن ابن عمرو ايضا (5)

فان نظر الى اتق الهلال لليلته ليراه قيل : تبصره فان اتبع الشيء بصره قيل اثره بصره (5)

* * *

يلاحظ على هذه الظواهر انها تتبع في طريق الملاحظة والاستقصاء والرصد والتسجيل خطوات المنهج العلمى التجريبي الحديث ولهذا كما نعتقد دلالة علمية خطيرة لانها تضعنا امام عقلية علمية تجريبية نضجت فيها الى حد كبير ملكات عقلية متعددة من قوة الادراك وشموله وسعته ومن سعة الخيال وتنوعه ومن عمق الملاحظة ودقتها ونفاذها ومن القدرة على الترتيب والتنسيق والتوصيف والتبويب .

هذا على الرغم من ان علماء اللغة يهتموا بالقيمة العلمية لهذه المادة وانما اهتموا بقيمتها اللغوية ولو انهم التفتوا الى القيمة العلمية التي التفت اليها الجاحظ في كتابه الحيوان لوصل اليها علم كثر ودقيق في مجال الظواهر التي وقعت تحت ملاحظتهم .

وابلغ دليل على ما نقول هو ذلك المرجع النفيس في علم الحيوان الذى بذل فيه الجاحظ جهده واستوعب فيه جل المادة المعروفة في عصره في هذا الباب مما نقل عن اليونان وغيرهم بالاضافة الى المادة العربية وفي هذا يقول الجاحظ وهو حجة في هذا الباب تحت عنوان

(4) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(5) فقه اللغة 113 - 114 .

معرفة العرب والاعراب بالحيوان : وقل معنى سمعناه
في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقراناه في كتب
الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه او تريبا منه
في اسفار العرب والاعراب وفي معرفة اهل لغتنا وملتنا

ولولا ان يطول الكتاب لذكرت ذلك اجمع . وعلى
انى قد تركت تفسير اشعار كثيرة وشواهد عديدة مما
لا يعرفه الا الراوية التحرير من خوف التطويل (6) .

وهذا الذى نراه يحملنا على ان نلفت النظر الى
انه اذا تأكد فضل العرب على الحضارة الغربية واذا
تأكد ان العرب هم الذين احيوا واسهموا في ارساء
تواعد المنهج العلمى التجريبي والتطبيقي وذلك ما
تناوله علماء ومؤرخون غربيون بالحديث والحراسة
فان ذلك لا يجوز ان يرد فقط الى الحضارة العربية
الاسلامية التى نضحت في ظلها العلوم التجريبية على

ايدي علمائها المشهورين من امثال الحسن بن الهيثم
وجابر بن حيان والرازي وابن سينا والبيروني
والادريسي . وغيرهم وانما يجب ان يرجع به الى
ما قبل الاسلام حيث وضع الاساس التجريبي وتكونت
العقلية التجريبية واذا كان التجريب قبل الاسلام
لم يأخذ طابعا معمليا ولم يتم على اساس وضع النظريات
وانشاء الفروض والتأسيس عليها واستخلاص النتائج
العلمية فان ذلك لا يمكن ان يقلل من قيمة المرحلة السابقة
على الاسلام لانها المرحلة التى اخترت ونضجت فيها
الملكات العقلية الاساسية اللازمة لهذا النوع
من الدراسة التى استطاعت حين اتاحت لها الفرصة
في ظل الحضارة الاسلامية وبعد ترجمة العلوم ان تؤتى
اكلها في صورة النظريات العلمية والمدرسات المعملية
التي ازدهرت بها جوانب كثيرة من جوانب المعرفة
التطبيقية في الكيمياء والبصريات والهندسة والطب
والجغرافيا والفلك . الخ على ايدي العلماء المسلمين.